وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ
وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ
وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا
لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا
أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

٤٨٩

معانى الكلمات :

روحا : قرآنا أو نبوة أو جبريل .

الإيمان : الشرائع التفصيلية التى لا تعلم إلا بالوحى .

صراط مستقيم:دين قويم (دين الإسلام).

أم الكتاب : اللوح المحفوظ أوالعلم الأزلى.

صفحا : إعراضا أو معرضين عنكم .

بطشا : قوة .

مثل الأولين : صفتهم أو قصتهم العجيبة .

سبلا : طرقا تسلكونها أو معايش .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن القرآن نور يستضاء به فى الحياة .

٢ ـ أن نتعرف على ما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات .

٣ ـ أن نعرف مظاهر وحدانية الله فى الأرض .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أنه كما أوحينا إلى الرسل من قبلك أو كما وصفنا حالات الوحى ، أوحينا إليك بمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا الاتصال ، فالوحى تم بالطريقة المعهودة ، ولم يكن أمرك بدعا ، أوحينا إليك﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ وفيه حياة ، يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها فى القلوب وفى الواقع العملى المشهود ، ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ ، هكذا يصور نفس رسول الله ﷺ وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحى .

يقول صاحب الظلال : « وقد سمع رسول الله ﷺ عن الكتاب وسمع عن الإيمان ، وكان معروفا فى الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة فليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود هو اشتمال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها فى

الضمير ، وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذى لابس قلب محمدعليه صلوات الله ، ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ ﴾ وهذه طبيعته الخالصة، طبيعة هذا الوحى، هذا الروح ، هذا الكتاب ، إنه نور ، نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ومن مخالطة هذا النور لها .

ويتوجه الخطاب إلى النبى ﷺ فيقول : إنك تبين القرآن لهم وتوضحه ، وتنيره وترغبهم فيه وتنهاهم عن ضده ، وترهبهم منه، ثم فسر الصراط المستقيم بأنه الصراط الذى نسبه الله لعباده ، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ، وإلى الله ترجع جميع أمور الخير والشر ، فيجازى كلا بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

يقول صاحب الأساس : « الخصائص المذكورة فى السورة للجماعة المسلمة يجب أن نعطيها صيغتها العملية فى حياتنا ؛ لأنه لا جماعة للمسلمين بدونها ، ولا إقامة للإسلام بدونها » .

سورة الزخرف

تعرض هذه السورة جانبا بما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ، ومن جدال واعتراضات ، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها فى النفوس ، وكيف يقرر فى ثنايا علاجها حقائقه وقيمه فى مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ، التى كانت قائمة فى النفوس إذا ذاك ، ولا يزال جانب منها قائما فى النفوس فى كل زمان ومكان .

تبدأ السورة بالحرفين : « حا . ميم » ثم يعطف عليها قوله : ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ ويقسم الله سبحانه وتعالى جعله فى صورته هذه اللفظية من جنس الكتاب المبين ، أو الكتاب المبين من جنس حا . ميم ، يقسم الله سبحانه بحا . ميم والكتاب المبين على الغاية من جعل هذا القرآن فى صورته هذه التى جاء بها للعرب ، فالغاية هى أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم وبلسانهم الذى يعرفون ، والقرآن وحى الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعله فى صورته هذه اللفظية عربيا ، حين اختار العرب لحمل هذه الرسالة ، لما يعلمه من صلاحية هذه الأمة ، وهذا اللسان لحمل هذه الرسالة ونقلها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وهذا القرآن فى الملأ الأعلى فى أعلى الرتب وأفضلها ، فهو ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ، ورفيع الشأن فى الكتب لكونه معجزا من بينها محكم برىء من اللبس والزيغ ، وكما أن الحكمة فى هذا الكون لا يستطيع البشر الإحاطة بها فإن هذا القرآن لا يستطيع البشر أن يحيطوا بكنه حكمته المتعددة الجوانب والظواهر والمظاهر ، وإنما يدركون بعضها.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضى ألا يترك عباده هملا ، لا يرسل إليهم رسولا ، ولا ينزل عليهم كتابا ، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال : أفنعرض عنكم ، ونترك إنزال الذكر إليكم ،

ونضرب عنكم صفحا لأجل إعراضكم وعدم انقيادكم له ؟ بل ننزل عليكم الكتاب ، ونوضح لكم فيه كل شيء ، فإن آمنتم به واهتديتم فهو من توفيقكم ، وإلا قامت عليكم الحجة ، وكنتم على بينة من أمركم ، ولقد كان عجيبا ـ وما يزال أن يعنى الله سبحانه ـ فى عظمته وفى علوه وفى غناه ـ بهذا الفريق من البشر ، فينزل لهم كتابا بلسانهم ، يحدثهم بما فى نفوسهم ، ويبين لهم طريق الهدى ، ويقص عليهم قصص الأولين ، ويذكرهم بسنة الله فى المكذبين بعد إرسال النبيين ، فقد أرسل سبحانه كثيراً من الرسل ، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يكذبونه ويسخرون به ، فأهلكنا من هو أشد بطشا من هؤلاء المسرفين المكذبين لك ، وسلف فى القرآن فى غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التى حقها أن تسير مسير المثل ، وهذا وعد لرسول الله ووعيد لهم .

ويقرر السياق لئن سألت ـ يا محمد ـ هؤلاء المسرفين المستهزئين المشركين الكافرين بهذا القرآن الشاكين فيه : من خلق السموات والأرض ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد ، وموقف هؤلاء المشركين أقل سوءا من ملاحدة عصرنا الذين ينكرون وجود الخالق أصلا ، مع أن ذلك يتنافى مع كل الحقائق العقلية والعلمية .

يقول صاحب الظلال : « فهم كانوا يعترفون بأن الذى خلقهن هو « الله » ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التى جاء بها الإسلام ، هذه الصفات الإيجابية التى تجعل لذات الله فى نفوسهم أثراً فعالا فى حياتهم وحياة هذا الكون ، كانوا يعرفون الله خالقا لهذا الكون ، وخالقا لهم كذلك ، ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء ؛ لأنهم لم يعرفوه بصفاته التى تنفى فكرة الشرك ، وتجعلها تبدو متهافتة سخيفة ، والقرآن يعلمهم أن الله الذى يعترفون بأنه خالق السموات والأرض ، وهو ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، فهو القوى القادر ، وهو العليم العارف فيبدأ بهم من اعترافهم ، ويخطوا بهم الخطوات التالية لهذا الاعتراف » .

وبعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ جوابهم اعتمد هذا الجواب ثم ذكرهم بفعله بهم الذى يقتضى منهم شكراً ، وهم لا يفعلون إلا كفراً قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أى : فراشا صالحا للحياة عليه والاطمئنان فيه ، وجعل لكم فيها طرقا ، لكى تهتدوا فى أسفاركم وفى سيركم من بلد إلى بلد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ علينا بالقرآن الكريم وتدبره فهو روح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح .

٢ ـ كون الناس مسرفين فى الشرك والفساد لا يمنع وعظهم ونصحهم وإرشادهم .

٣ ـ من الخطأ ونكران الجميل أن نواجه أصحاب الرسالات والداعين إلى الإصلاح والموجهين إلى الخير بالإنكار والمقاومة والعناد والإيذاء لهم من غير أن نتدبر ما يدعوننا إليه .

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا
كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ
لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم
بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي
الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ
شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم
مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ
كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

٤٩٠

معانى الكلمات :

بقدر : بمقدار .

أنشرنا : أحيينا .

مقرنين : مطيقين .

لمنقلبون : لراجعون .

أصفاكم : خصكم .

ينشؤا فى الحلية : يربى فى الزينة والنعمة (البنات) .

يخرصون : يكذبون .

أمة : ملة ودين وطريقة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض مظاهر قدرة الله تعالى ونعمه على عباده .

٢ ـ أن نعلم حال المشركين العرب فى الجاهلية واعوجاج فطرتهم .

٣ ـ أن نعرف موقف الإسلام من التقليد .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أن الله تعالى نَزَّل من السماء ماء بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم ، بمقدار يسلم معه العباد وتحتاج إليه البلاد ، فأحيينا به أرضا ميتة لا نبات فيها ، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، وبهذا قامت الحجة عليهم فى شأن التوحيد وفى شأن اليوم الآخر ، فالذى أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ، والذى أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة ، كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة ، فالإعادة من البدء ، وليس فيها عزيز على الله .

ثم هذه الأنعام التى يجعلون منها جزاء الله وجزءًا لغير الله ، وما لهذا خلقها الله ، إنما خلقها لتكون من نعم الله على الناس ـ يركبونها كما يركبون الفلك ، ويشكرون الله على تسخيرها ،

ويقابلون نعمته بما تستحقها ، والزوجية هى قاعدة الحياة كما تشير إليه الآية ، فكل الأحياء أزواج ، وحتى الخلية الواحدة الأولى تحمل خصائص التذكير والتأنيث معها ، بل ربما كانت الزوجية هى قاعدة الكون كله لا قاعدة الحياة وحدها ، إذا اعتبرنا أن قاعدة الكون هى الذرة المؤلفة من إلكترون سالب وبروتون موجب ، كما تشير البحوث الطبيعية حتى الآن ، وعلى أية حال فالزوجية فى الحياة الظاهرة ، والله هو الذى خلق الأزواج كلها من الإنسان وغير الإنسان ، و جعل لكم السفن والأنعام ، وذللها وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها ، وشربكم ألبانها وركوبكم على ظهورها ؛ لتستووا متمكنين مرتفعين على ظهور ما تركبونه وهو الفلك والأنعام ، ثم تذكروا بقلوبكم نعمة ربكم فيما سخر لكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا بألسنتكم : سبحان الذى ذلل لنا هذا المركوب ، وما كنا له مطيقين ، وإنا إلى ربنا لصائرون إليه بعد مماتنا ، وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوى على الزاد الأخروى ، وباللباس الدنيوى على الأخروى .

يقول صاحب الظلال : « هذا هو الأدب الواجب فى حق المنعم ، يوجهنا الله إليه لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التى تغمرنا ، والتى نتقلب بين أعطافها ثم ننساه ، والأدب الإسلامى فى هذا وثيق الصلة بتربية القلب وإحياء الضمير ، فليس هو مجرد طقوس تزاول عند الاستواء على ظهور الفلك والأنعام ، ولا مجرد عبارات يتلوها اللسان إنما هو استحياء للمشاعر لتحس بحقيقة الله ، وحقيقة الصلة بينه وبين عباده ، وتشعر بينه فى كل ما يحيط بالناس ، وكل ما يستمتعون به مما سخره الله لهم ،و هو محض الفضل والإنعام ،بلا مقابل منهم ، فما هم بقادرين على شىء يقابلون به فضل الله ، ثم لتبقى قلوبهم على على وجل من لقائه فى النهاية لتقديم الحساب ... وكل هذه المشاعر كفيلة باستبقاء القلب البشرى فى حالة يقظة شاعرة حساسة لا تغفل عن مراقبة الله ، ولا تجمد ولا تتبلد بالركود والغفلة والنسيان » .

بما مر أقام الله عز وجل الحجة على وجوب شكره ، ويمضى السياق فيذكر عما قابلوا هذا من الكفر ، فقالوا : الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له وبعضاً منه كما يكون الولد جزءاً لوالده ، وادعاء الإنسان هذا الادعاء يدمغه بالكفر الذى لا شبهة فيه ، فنسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصل الكفران كله .

ثم يحاجهم بمنطقهم وعرفهم ، ويسخر من سخف دعواهم أن الملائكة إناث ثم نسبهم إلى الله ، فإذا كان الله سبحانه متخذاً أبناء ، فما له يتخذ البنات ويصفيهم هم بالبنين ، وهل يليق أن يزعموا هذا الزعم بينما هم يستنكفون من ولادة البنات لهم ويستاؤون ، أفما كان من اللياقة والأدب ألا ينسبوا إلى الله من يستاؤون هم إذا بشروا به ، حتى ليسود وجه أحدهم من السوء الذى يبلغ حدًّا يجل عن التصريح به ، فيكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من السوء ؟! أفما كان من

اللياقة والأدب ألا يخصوا الله بمن يتربى فى الزينة والنعمة ولا يقدر على جدال ولا قتال ، بينما هم فى بيئتهم ـ يحتفلون بالفرسان والمقاويل من الرجال ؟!

فتحصل من السياق أنهم قد جمعوا فى كفرهم أنواعا من الكفر ، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ، ونسبوا إليه ما يعتبرونه أقل النوعين الذكر والأنثى ، فأقاموه فى أنفسهم المقام الأدنى ، وارتضوا له ما لا يرتضون لأنفسهم ، وجعلهم من الملائكة المكرمين فاستخفوا بهم إذ جعلوهم إناثا ، والملائكة مخلوقات نورانية لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا خنوثة ، ثم هم عباد الله ، وكيف تجتمع العبودية لله مع الولاء ؟ وهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم ، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال ، ولا أحاطوا به من خبر يوجب العلم ، ولم يشاهدوا خلقهم حتى يخبروا عن المشاهدة ، وستكتب شهادتهم التى شهدوا بها على أنوثة الملائكة وبنوتهم ، ويسألون عنها يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقالوا : لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التى هى على صور الملائكة التى هى بنات الله ، وما هم بصحة ما قالوه واحتجوا به علم ، إن هم إلا يكذبون ويتقولون ، يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج ، وتتهافت بين أيديهم الأسطورة ، فيحيلون على مشيئته الله ، يزعمون أن الله راضٍ عن عبادتهم الملائكة ، ولو لم يكن راضيا ما مكنهم من عبادتهم ، ولمنعهم من ذلك منعًا .

وهذا القول احتيال على الحقيقة ، فإن كل شىء يقع فى هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله ، هنا حق ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال ، وكلفه اختيار الهدى ورضيه له ، ولم يرض له الكفر والضلال ، وإن كانت مشيئته أن يخلقه قابلًا للهدى أو الضلال،وهم حين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبطاً،فهم لا يوقنون أن الله أراد لهم أن يعبدوا الملائكة ومن أين يأتيهم اليقين؟ ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ويتبعون الأوهام والظنون .

أم آتيناهم كتابا من قبل القرآن أو من قبل شركهم فهم به آخذون عاملون ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فليس لهم فى عبادتهم غير الله عز وجل برهان ولا دليل ولا حجة ، بل لا حجة لهم يتمسكون بها لا من حيث العيان ولا من حيث العقل ، ولا من حيث السمع إلا قولهم : إنا وجدنا آباءنا على دين أو طريقة فقلدناهم ،إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد بلا تدبر ولا حجة ، و هى صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمشى حيث هو منساق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ مشروعية التسمية والذكر عند ركوب ما يركب ، وشكر الله على نعمه حق واجب .

٢ ـ وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره فى حدود ما يسمح به الشرع وتتسع له طاقة الإنسان

٣ ـ حرمة القول على الله بدون علم ، وحرمة التقليد بلا دليل .

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)
قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟
إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٢٤) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ
إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ
(٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ
مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩)
وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا۟
لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَآ
أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)

معانى الكلمات :

فطرنى : خلقنى .

عقبه : ذريته إلى يوم القيامة .

سخريا : مسخراً فى العمل .

معارج : مصاعد (سلالم) .

يظهرون : يصعدون ويرتقون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضيلة من يورث أولاده هدىً وصلاحًا .

٢ ـ أن نعلم الحكمة فى الغنى والفقر ، والصحة والمرض والذكاء والغباء .

٣ ـ أن نعرف تفاهة متع الحياة الدنيا وهوانها على الله ، وأن الآخرة خير وأبقى .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق مصائر الذين قالوا قولتهم المقلدة ، واتبعوا طريقهم فى المحاكاة والتقليد ، وفى الإعراض والتكذيب ، بعد الإصرار على ما هم فيه على الرغم من الإعذار والبيان ، ويتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم كذلك مكرورة : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ أو لـ ﴿ مُّقْتَدُونَ ﴾ ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة وتطمس عقولهم دون التدبر لأى جديد ، ولو كان أهدى ، ولو كان أجدى ، ولو كان يصدع بالدليل ، وثم لا يكون إلا التدمير والتنكيل لهذه الجبلة التى لا تريد أن تفتح عينيها لترى ، أو تفتح قلبها لتحس ، أو تفتح عقلها لتستبين وهذا هو مصير ذلك الصنف من الناس يعرض عليهم لعلهم يتبينون عاقبة الطريق الذى يسلكون .

وبعد أن ذكر الله عز وجل أن علة هؤلاء هو تقليد الآباء بغير حجة ولا دليل ولا برهان ، يذكر لنا نموذجا لموقف الإنسان الكامل المتحرر من التقليد الباطل للآباء ، وذلك فى شخصية إبراهيم ﷺ ، إن دعوة التوحيد التى يتنكرون لها هى دعوة أبيهم إبراهيم ، الدعوة التى واجه بها أباه وقومه مخالفا بها عقيدتهم الباطلة،غير منساق وراء عبادتهم الموروثة، ولا مستمسك بها لمجرد أنه وجد أباه وقومه عليها ، بل لم يجاملهم فى إعلان تبرئه المطلق منها فى لفظ واضح صريح ، ويبدو من حديث إبراهيم ﷺ ـ وتبرئه مما يعبدون إلا الذى فطره أنهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلا ، إنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه ، فتبرأ من كل ما يعبدون ، واستثنى الله ، ووصفه بصفته التى تستحق العبادة ابتداء ، وهو أنه فطره وأنشأه ، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنه الموجد ، وقرر يقينه بهداية ربه له ، بحكم أنه هو الذى فطره وليهديه ، وهو أعلم كيف يهديه .

قال إبراهيم هذه الكلمة التى تقوم بها الحياة ، كلمة التوحيد التى يشهد بها الوجود ، وجعلها باقية فى ذريته فلا يزال من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ، والترجى لإبراهيم ، ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم ، ولكن هذه الكلمة لم تستقر فى الأرض إلا من بعد إبراهيم ،عرفتها على لسان نوح وهود وصالح وإدريس، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ولها ، فلما عرفتها على لسان إبراهيم ﷺ ظلت متصلة فى أعقابه ، وقام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون .. وأشبه أبنائه به : محمد ﷺ خاتم الرسل ، وقائل كلمة التوحيد فى صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة .

وبعد أن ذكر الله عز وجل النموذج الكامل للموقف الحق من ضلال الآباء يعود السياق ليحدثنا عن موقف المشركين من دعوة رسول الله ﷺ وعن أسباب اغترارهم ، فهؤلاء وآباؤهم من قبلهم قد هيأت لهم المتاع ومددت لهم فى الأجل ، حتى جاءهم الحق فى هذا القرآن ، وجاءهم رسول مبين ، يعرض عليهم هذا الحق فى وضوح وتبيين ، ولا يختلط الحق بالسحر فهو واضح بين ، وإنما هى دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها ، فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ؛ ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم ، فيقولون إنه سحر ، ويعلنون كفرهم به على سبيل التوكيد ، ليلقوا فى روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ، فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد ، شأن الملأ من كل قوم فى التغرير بالجماهير .

ثم يحكى القرآن تخليطهم فى القيم والموازين ، وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد ﷺ ليحمل إليهم الحق والنور، فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ مكة والطائف ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أرادوا بالعظيم من كان ذا مال وجاه ، ولم يعرفوا أن العظيم من كان عند الله عظيما ، يعنون الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى ، ورد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله ، التى يختار لها من عباده من يشاء ، وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء ، مبينا لهم عن حقيقة القيم التى يعتزون بها ، ووزنها الصحيح فى ميزان الله .

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ يا عجبًا ! وما لهم هم ورحمة ربك ؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ولا يحققون لأنفسهم رزقا حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه، وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة ، ولم نجعل قسمة الأدون إليهم وهو الرزق فكيف النبوة ؟ أو كما فضلت البعض على البعض فى الرزق فكذا أخص بالنبوة من أشاء ، وجعلنا البعض أغنياء وأقوياء وأسياداً والبعض غير ذلك ، وجعلنا البعض أذكياء وعقلاء والبعض غير ذلك ، ثم بين الله عز وجل الحكمة فى هذا التفاوت الملحوظ فى جميع العصور ، وجميع البيئات ، وجميع المجتمعات وهى ليسخر بعضهم بعضا فى الأعمال .

يقول صاحب الظلال « ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتما ، وليس التسخير هو الاستعلاء ، استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد . كلا .. ، إن هذا معنى قريب ساذج لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهى الخالد ... إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة المركوزة فى فطرة هذا الوجود ... وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت فى مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ، والتفاوت فى مدى إتقان هذا العمل ، وهذا التفاوت ضرورى لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة فى هذه الأرض ، ولو كان جميع الناس نسخا مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة فى هذه الأرض بهذه الصورة ، ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد لها مقابلا من الكفايات ، ولا تجد من يقوم بها ـ والذى خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو ، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها ، ذلك شأن الرزق والمعاش فى هذه الحياة الدنيا ، ووراء ذلك رحمة الله ، والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أن لها أهل .

وفى الآية بعدها يقول القاسمى : « ولولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة للترافد والتعاون والتضام ، وما به قوام حياتهم كالجسم الواحد ؛ لجعلنا للناس وما ذكر من الزين والحلى لدخوله تحت القدرة الكاملة إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود وأنه لولا التسخير لآتاها أحط الخلق وجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة ومصاعد من فضة وسلالم عليها يرتقون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فى قصة إبراهيم ﷺ ما يهدينا إلى أن نبحث بأنفسنا لنصل إلى الحقيقة وننادى بها ، وندافع عنها ونقف من ورائها ، فهى قصة الجهاد فى سبيل الحق والصبر على الآلام ؛ إعلاء لكلمة الله .

٢ ـ وجوب البراءة من الشرك والمشركين .

٣ ـ فضل الله بعض الناس على بعض فى الرزق وفى الدرجات ، وهذا لينتظم أمر الحياة ويتعاون الناس .

الجزء الخامس والعشرون — سورة الزخرف

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا
فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ
بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ
إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾
فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى
وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

٤٩٢

معانى الكلمات :

زخرفا : ذهبا أو زينة مزوقة .

يعش : يعرض ويتغافل .

نقيض : نهيىء ونسبب .

قرين : مصاحب وملازم لا يفارقه .

المشرقين : المشرق والمغرب .

نذهبن بك : قدرنا عليك الموت .

وإنه لذكر : إن القرآن لشرف عظيم .

بآياتنا : بمعجزاتنا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حال من يتغافل ويتعامى عن دين الله عز وجل .

٢ ـ أن نتعرف على نعمة القرآن .

٣ ـ أن نعرف ما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الله .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الأساس : « ولولا أن يصبح الناس كلهم كفاراً لجعلنا للكفار سقفا ومصاعد وأبوابا وسرراً كلها من فضة ، وجعلنا لهم زخرفا أى زينة من كل شىء ، دل هذا على أن مما يفتن المسلم عن دينه رؤيته الكافرين فى حالة اقتصادية أجود ، وهذا هو الذى نراه فى عصرنا ؛ إذ فتن كثير من المسلمين عن الإسلام بسبب رؤيتهم مجتمعات كافرة فى حالة اقتصادية جيدة ، بل أصبحوا يدعون إلى هذه الأنظمة الكافرة ويتبعونها من أجل الوصول إلى ماهم عليه ، وقد أخطؤوا مرتين : مرة إذا استبدلوا الحق بالباطل ، ومرة لتصورهم أن تطبيق الإسلام لا يوصل إلى الرفاه أو إلى التقدم المدنى ، وكيف والله عز وجل وعد المتقين بأن يفتح عليهم بركات من السماء والأرض » .

ثم قال تعالى بعد أن بين حقارة الدنيا عنده حتى ليعطيها الكافرين لولا أن يفتتن المسلمون ، وما كل ذلك إلا من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله ، وثواب الآخرة عند الله لمن اتقى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى ، وهى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد .

ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله ، وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله ، ولا يشير إلى فلاح ، وأن الآخرة عند ربك للمتقين ، استطرد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض وهم عمن ذكر الله منصرفون عن الطاعات التى تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين،والعشى كلال البصر عن الرؤية وغالبًا ما يكون عند مواجهة لضوء الساطع الذى لا تملك العين أن تحرق فيه أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله ، وقد يكون ذلك لمرض خاص، والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمن ، واستشعار وجوده ورقابته فى الضمير .

وقد قضت مشيئة الله فى خلقه الإنسان ذلك واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء ، ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون ، وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين ، أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ، ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ، والتعبير بالفعل المضارع : ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون ، ويصل العمى إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ، وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذى زين له الضلال ، وقاده فى طريق الهلاك وهو يلوح له بالسلامة ، ينظر إليه فى حنق ويقول : ياليته لم يكن بيننا لقاء على بعد المشرق والمغرب ، وبئس الشيطان قرينا ، وقد صح ظلمكم وكفركم وتبين ، ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة فى أنكم كنتم ظالمين ، ولن ينفعكم اشتراككم فى العذاب أو كونكم مشتركين فى العذاب كما كان عموم البلوى يطيب القلب فى الدنيا ، وهكذا بين الله عز وجل عاقبة الغفلة والإعراض عن كتابه فى الدنيا والآخرة .

ويتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ يسليه عن هذا المصير البائس الذى انتهى إليه فريق من البشر ، ويضع حدوداً فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة فى أعلى درجاتها عند مرتقى النبوة ، ومجال القدرة الإلهية الطليقة ، وتثبيت معنى التوحيد فى صورة من أدق صوره ، فوظيفة الرسول أن يسمع من يسمع، وأن يهدى من يبصر، والذين لا يستمعون للحق استماع قبول، ففى آذانهم صمم عن سماع الحق، والذين فقدوا بصر البصيرة ، ففى قلوبهم عمى لا يرون معه الحق ،

ومن كان في ضلال عن الحق فلا يعرف فليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب ، ونشفى صدور المؤمنين منهم فلابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ، أو نرينك الذى وعدناهم من العذاب الدنيوى قبل أن نتوفاك وإنا عليهم قادرون ، فتمسك بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق ، وما يهدى إليه هو الحق ، المفضى إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم .

وفى الآية بعدها يقول صاحب الظلال « ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين : إن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير ، أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك ، وهذا ما حدث فعلا ... وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التى اختارها الله لدينه ، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة ، إذا هى تخلت عن الأمانة » .

ويطلب السياق السؤال للرسل ، وليس المراد بسؤالهم حقيقة السؤال ، ولكنه مجاز عن النظر فى أديانهم والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط فى ملة من ملل الأنبياء ، وكفاه نظرًا وفحصا فى كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا ، وهذه الآية كافية لا حاجة إلى غيرها ، وهو سؤال تقريع لعبدة الأوثان أنهم على الباطل .

والله عز وجل يقص علينا من نبأ هؤلاء المرسلين ليرينا أن دعوة الرسل السابقين جميعا هى دعوة هذا القرآن فى التوحيد، وفى ذلك دليل من خلال المضمون على أن هذا القرآن من عند الله ، فيقول سبحانه مخبرًا عن عبده ورسوله موسى ﷺ ، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا ، من القبط وبنى إسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظاما ؛ كيده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها ، وضحكوا ممن جاءهم بها ، وسخروا منها ، وهزئوا بها وسموها سحرا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على الدعاة إلى الله أن يثبتوا على الحق ، وأن يستهينوا بالصعاب التى يلاقونها مع استمرارهم فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

٢ ـ المعركة دائمة بيننا وبين الشيطان وجنوده ، والمؤمن العاقل هو الذى يصرف وساوس الشيطان .

٣ ـ القرآن ذكر وشرف لمن أراد الذكر والشرف فعليه بالاتباع .

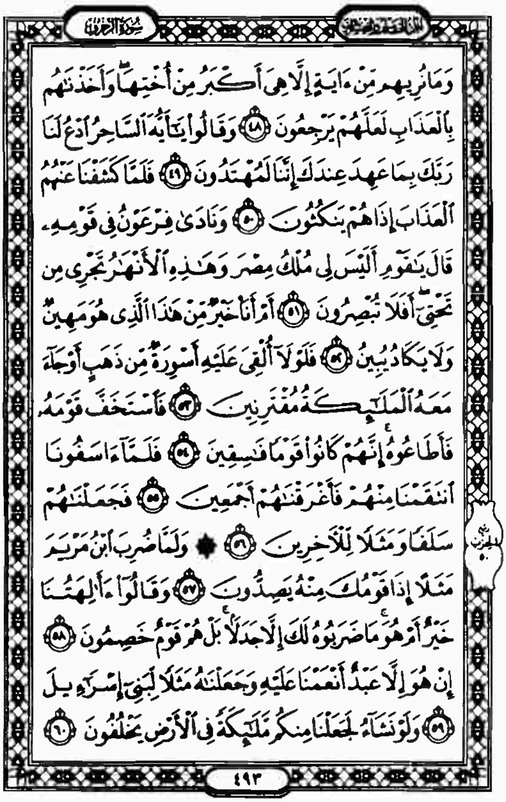
وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن
تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ
مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ
مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾
٤٩٣

معانى الكلمات :

ينكثون : ينقضون عهدهم .

من تحتى : من تحت قصورى .

مهين : ضعيف .

يبين : يفصح عن الكلام .

مقرنين : مقرونين به مصاحبين له .

استخف قومه : استثارهم واستفزهم .

سلفا: قدوة للكفار فى استحقاق العذاب .

خصمون : لُدٌّ شداد الخصومة بالباطل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على قصة موسى ﵇ مع فرعون وجنوده ، وكيف كانت العاقبة .

٢ ـ أن نعلم ماهية دعوة عيسى ﵇ وحال قومه معه .

٣ ـ أن نعرف قدرة الله الطليقة ، وأنه قوى شديد العقاب .

المحتوى التربوى :

يشير السياق إشارة سريعة إلى الآيات التى عرضها موسى وينهى هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها ، وهكذا لم تكن الآيات التى ظهرت على يدى موسى ﵇ مدعاة إيمان ، وهى تأخذهم متتابعة ، كل آية أكبر من أختها ، مما يصدق قول الله فى مواضع كثيرة ، وفحواه أن الخوارق لا تهدى قلبًا لم يتأهل للهدى ، وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدى العمى ، وقد أخذهم الله بالعذاب ؛ كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الزروع والأنفس والثمرات ، لعلهم يرجعون عن الكفر إلى الإيمان ، ومع ذلك لم يرجعوا .

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ فهم أمام البلاء ، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء ، ومع ذلك

يقولون له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ ويقولون كذلك : ﴿ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ وهو يقول لهم : إنه رسول ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص ، ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم ، ولا خالطتها بشاشة الإيمان على الرغم من قولهم : ﴿ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴾ أى مؤمنون به ، فلما كشف الله عنهم العذاب إذا هم ينقضون العهد بالإيمان ولا يوفون به .

وهنا يبرز فرعون فى جاهه وسلطانه ، وفى زخرفه وزينته ، غلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحى ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة فى عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق ، ونادى فرعون بنفسه أو أمر مناديا فنادى ، ويحتمل أنه عمم تعميما ، أو وزع منشوراً ؛ إذ إن بعض أوراق البردى المكتشفة تذكر أن رع مسيس الثانى وزع منشوراً ـ عثر على بعض نسخه ـ يدعو فيه إلى ألوهيته ، ولكن هناك خلاف فى أن رع مسيس الثانى هو فرعون موسى ، المهم غره ملكه فقال : ألست مالك مصر والمتصرف فيها ، وهذه الأنهار المنسحبة من النيل فى وسط القصور والبساتين ، أفلا تبصرون هذا الملك الطويل العريض ، وما يقوله فرعون أمر قريب مشهود للجماهير يبهرها وتستخفها الإشارة إليه ، فأما ملك السموات والأرض ومن بينها ـ ومصر لا تساوى هباءة فيه ـ فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه ، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد .

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب ، وأخذ يلقى فى روعها أنه خير من موسى الضعيف العيى ، فقد ادعى فرعون ـ لعنه الله ـ أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام،وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وقوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ فهوا استغلال لما كان معروفا عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان ، وإلا فقد استجاب الله دعاءه ﴿ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ (طه) وحلت عقدة لسانه فعلا وعاد يبين ، وعند الجماهير الساذجة الغافلة لابد أن يكون فرعون الذى له ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحته خيراً من موسى ﷺ، ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم .

﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ ﴾ هكذا من ذلك العرض التافه الرخيص ، أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول ! أسورة من ذهب تساوى أكثر من الآيات المعجزة التى أيد الله بها رسوله الكريم ، ﴿ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴾ وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر تؤخذ به الجماهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ، فاستخف قومه وهو أمر لا غرابة فيه ، فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعودوا يبحثون عنها ، ويلقون فى روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة ، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه

الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسكون بحبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان !

وانتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير ، وعمت الفتنة وأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهى فى خيلاء ، فحققت كلمة الله وتحقق النذير لما أغضبوا الملك الجبار وآسفوه ، فأغرقهم جميعا، وجعلهم سلفا يتبعه كل خلف ظالم ومثلا لمن يجيؤون بعدهم ويعرفون قصتهم فيعتبرون .

وينتقل السياق إلى قصة عيسى ﷺ لما ضرب مثلا من قبل الكافرين فى كونه عبد من دون الله،وذلك دليل فى زعم الكافرين أنه فى النار بناء على ما ورد فى سورة الأنبياء أنهم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم ، فهذا عيسى يعبد من دون الله ، فاستدلوا بذلك على أن القرآن ليس مستقيم العبارة وأنه ... وأنه ... وأنه ... ، وبنوا عليه : ما دام عيسى على رأى القرآن فى النار ـ وليس ذلك معقولا ـ فآلهتهم ليست فى النار ، ورتبوا على هذا الأمر ضرورة الثبات على كفرهم وصدودهم عن الحق ، وأصبح القوم من هذا المثل يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وضحكا وهم فى صدود عن الحق ، وقالوا : إن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ؛ فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا ، وما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة فى القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية ؛ لأنها لما لا يعقل ، ثم هى خطاب لقريش وكانت عبادتهم الأصنام ، بل هم قوم لداد شداد الخصومة دأبهم اللجاج .

وما عيسى ﷺ إلا عبد كسائر العبيد ، أنعمنا عليه بالنبوة ، وصيرناه عبرة عجيبة ، ودلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء ، ولو شاء الله لقدرته على عجائب الأمور لبدل من هؤلاء الرجال ملائكة يخلفونهم كما يخلفهم أولادهم فى الأرض ، والآية تدلل على قدرة الله ، وعلى انفراده بالوحدانية ، وأن الملائكة وعيسى ليسوا إلا عبيداً لله ، وفيها تهديد لأهل الأرض بإهلاكهم ، وفيه تحذير لقريش من تماديها فى مثل هذا الكفر وجرأتهم عليه ، فمرد الأمر إلى مشيئة الله فى الخلق ، وما يشاؤه من الخلق يكون ، وليس أحد من خلقه يمت إليه بنسب ولا يتصل به ـ سبحانه إلا صلة المخلوق بالخالق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فى قصة موسى ﷺ وما يهدينا إلى التمسك بالحق ؛ لأن النصر فى النهاية له .

٢ ـ تأييد الله لأنبيائه بالمعجزات الخارقة للعادة ؛ لتأكيد صدقهم فيما يدعون إليه الناس .

٣ ـ حقارة الدنيا وقلة شأنها وهوانها على الله تعالى ، وفى قصة عيسى ﷺ ما يوجهنا إلى الحق والخير والود .

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ
﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

معانى الكلمات :

تمترن : تشكوا .

يصدنكم : يدفعنكم .

بغتة : فجأة .

الأخلاء : الأصدقاء والأحباب .

تحبرون : تسرون وتنعمون .

صحاف : آنية .

أورثتموها : فزتم بها وصارت لكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مزاعم بعض الناس على عيسى عليه السلام .

٢ ـ أن نعلم حقيقة رسالة عيسى عليه السلام إلى قومه .

٣ ـ أن نعرف اختلاف جزاء المتقين والمجرمين يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق شيئاً عن عيسى عليه السلام ، يذكرهم بأمر الساعة التى يكذبون بها أو يشكون فيها ، وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بمعنى أنه يعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية : ﴿ وإنه لَعَلَم للساعة ﴾ بمعنى أمارة وعلامة ، وكلاهما قريب من قريب ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » أخرجه الشيخان ومالك وأبو داود .

وهو غيب من الغيب الذى حدثنا عنه الصادق الأمين ، وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين ، وكانوا يشكون فى الساعة ، فدعاهم القرآن إلى اليقين ،و كانوا يشردون عن الهدى ، ودعاهم القرآن على لسان رسول الله ﷺ إلى اتباعه فإنه يسير بهم فى الطريق المستقيم ، القاصد الواصل الذى لا يضل سالكوه ، ويبين لهم أن انحرافهم وشرورهم أثر من اتباع الشيطان ، والرسول أولى أن يتبعوه .

يقول صاحب الظلال : « والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم ، ومنذ المعركة الأولى فى الجنة ، وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدواً يقف له بالمرصاد وعن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ، ثم لا يأخذ حذره ، ثم يزيد فيصبح تابعا لهذا العدو الصريح .

وقد أقام الإسلام الإنسان فى هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طول حياته على هذه الأرض ، ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر ، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كذلك على قلب بشر ، وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة ... التى تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان ... » .

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى عليه السلام وحقيقة ما جاء به ، وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده ، فلما جاء عيسى بالمعجزات البينات الواضحات الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به ، قال لبنى إسرائيل قد جئتكم بالنبوة والعلم ؛ لأبين لكم صواب الذى تختلفون فيه من الأمور الدينية لا الدنيوية ، فاتقوا الله فيما أمركم به وأطيعون فيما جئتكم به، وما أنا وأنتم إلا عبيد له سبحانه ، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، فاعبدوه وحده ، فعبادة الله وحده هى الصراط المستقيم ،و اختلف الأحزاب من بين النصارى ؛ اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعى أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله ، تعالى عن قولهم علواً كبيراً ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ يوم القيامة .

وحين يصل السياق إلى الحديث عن الظالمين ، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى عليه السلام مع المحاجين لرسول الله ﷺ بفعل هذه الأحزاب ، ويصور حالهم يوم القيامة فى مشهد يحتوى كذلك على صفحة المتقين المكرمين فى جنات النعيم ، يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها ، لا يشعرون بمقدمها ، هذه المفاجأة تحدث حدثا غريبا ، يقلب كل ما كانوا يألفونه فى الحياة الدنيا ، فعداء الأخلاء ينبع من معين ودادهم ، لقد كانوا فى الحياة الدنيا يجتمعون على الشر ، ويملى بعضهم لبعض فى الضلال ، فاليوم يتلاومون ، واليوم يلقى بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر ، واليوم ينقلبون إلى خصوم ـ يتلاحقون من حيث كانوا أخلاء

يتناجون، إلا المتقين فهؤلاء مودتهم باقية؛ فقد كان اجتماعهم على الهدى، وتناصحهم على الخير ، وعاقبتهم إلى النجاة .

وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون ، يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوى الكريم للمتقين المتحابين فى الله يومئذ بأنه لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور ، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها ، وإذا انتفى المكروه من كل وجه ، ثبت المحبوب المطلوب ، هؤلاء هم الذين آمنوا وصدقوا بالقرآن وكانوا منقادين له فى جميع أحوالهم ، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن . يقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات فى الدنيا ، تسرون سرورًا يشيع فى أعطافكم وقسماتكم فيبدو عليكم الحبور .

ثم تشهد بعين الخيال ـ فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم ، وإذا لهم فى الجنة ما تشتهيه الأنفس ، وفوق شهوة النفوس التذاذ العيون ، كمالا وجمالا فى التكريم ؛ تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأوانى وأفخرها ، وهى صحاف الذهب وشرابهم بألطف الأوانى ، وهى الأكواب التى لا عرى لها وهى من أصفى الأوانى ، من فضة أعظم من صفاء القوارير ، وفى الجنة ، ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وهذا لفظ جامع يأتى على كل نعيم وفرح ،وقرة عين ،وسرور قلب، فكل ما اشتهته النفوس من مطاعم ومشارب ، وملابس، ومناكح ، ولذته العيون من مناظر حسنة ، وأشجار محدقة ، ونعم مونقة ، ومبان مزخرفة ، فإنه حاصل فيها ، معد لأهلها على أكمل الوجوه وأفضلها ، وتمام النعيم الخلد الدائم فيها الذى يتضمن دوام نعيمها وزيادته وعدم انقطاعه .

ومع هذا النعيم ، ما هو أكبر منه وأفضل ، التكريم بالخطاب من العلى الكريم بأن أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل الجنة أحد بعمله ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحة التى تعاطاها المؤمنون ، ولكم فى هذه الجنة فاكهة كثيرة من جميع الأنواع ، منها تأكلون مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية ، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الجنة جزاء المؤمنين المخلصين فضلا ورحمة من عند الله، ونزول عيسى عليه السلام من علامات قرب قيام الساعة.

٢ ـ من واجب كل مسلم أن يدعو إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقنع به الآخرين .

٣ ـ كل صداقة لغير الله تنقلب يوم القيامة عداوة .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ
فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾
وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا
فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ
وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ
الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ
الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ
إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن
شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ
لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

٤٩٥

معانى الكلمات :

يفتر : يخفف .

مبلسون : يائسون .

أبرموا أمرا : أحكموا كيداً .

يحسبون : يظنون .

نجواهم : ما يتحدثون به سرا .

يخوضوا : يدخلوا مداخل الباطل .

يؤفكون : فكيف يصرفون عن عبادته تعالى .

فاصفح : فأعرض .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم عاقبة المجرمين يوم القيامة ، وما هم فيه من عذاب شديد .

٢ ـ أن نتعرف على فساد عقيدة الكافرين فى الله عز وجل .

٣ ـ أن نعرف أنه لا خلاص ولا شفاعة إلا بإذن الله الذى له التمجيد والتقديس .

المحتوى التربوى :

قص الله عز وجل علينا ما أعده للمتقين المؤمنين المسلمين فى الجنة يوم القيامة بعد أن تقوم الساعة ، والآن يحدثنا عن حال أهل النار ، فالذين أجرهم بكفرهم وتكذيبهم فى عذاب دائم فى جهنم منغمرون فيه ، محيط بهم العذاب من كل جانب ، وفى درجة شديدة عصيبة لا يفتر لحظة ، ولا يبرد هنيهة ، ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل فى الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد ، فهم فيه بائسون قانطون ، كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا المورد الموبق ، ظالمين غير مظلومين ، فهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم ، وبما ظلموا به أنفسهم ، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم .

ثم تتناوح فى الجو صيحة من بعيد ، صيحة تحمل كل معانى اليأس والكرب والضيق ، ﴿ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ، إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق ، من هناك من وراء الأبواب المرصدة فى الجحيم ، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين ، إنهم لا يصيحون فى طلب النجاة ولا فى طلب الغوث ، فهم مبلسون يائسون ، إنما يصيحون فى طلب الهلاك ، الهلاك السريع الذى يريح ، وحسب المنايا أن تكن أمانيا ، وإن هذا النداء ليلقى ظلا كثيفا للكرب والضيق ، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسا أطار صوابها العذاب ، وأجساما تجاوز الألم بها حد الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة ﴿ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ولكن الجواب يجىء فى تيئيس وتخذيل ،وبلا رعاية ولا اهتمام بأنه لا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء ، إنكم ماكثون .

وفى ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق ، المعرضين عن الهدى ، الصائدين على رؤوس الأشهاد فى أنسب جو للتحذير والتعجب .

يقول صاحب الظلال : « وكراهة الحق هى التى كانت تحول بينهم وبين اتباعه لا عدم إدراك أنه الحق ، ولا الشك فى صدق الرسول الكريم ، فما عهدوا عليه كذبا قط على الناس ، فكيف يكذب على الله ويدعى عليه ما يدعيه؟ والذين يحاربون الحق لا يجهلون فى الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه؛ لأنه يصادم أهواءهم ، ويقف فى طريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته ، فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجتراء على الدعاة ، لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت العليم بما يسرون وما يمكرون فإصرارهم على الباطل فى وجه الحق يقابله أمر الله الجازم ، وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته ... ، وتدبيرهم ومكرهم فى الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى ، والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون ، أمام الخالق العزيز العليم » .

وهم إذ يكيدون لمحمد ﷺ ويأثمون ، فالله عز وجل يسمعها ويطلع عليها ، والحفظة عندهم يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

ويأمر الله عز وجل رسوله أن يعلن: قل يا محمد: لو فرض أن للرحمن ولدًا لعبدته على ذلك ؛ لأنى عبد من عبيد الله ، مطيع لجميع ما يأمرنى به ، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا ، فهذا على سبيل الفرض ، والمراد نفى الولد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهى محال فى نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها .

ثم نزه الله عز وجل ذاته عن اتخاذ الولد ، فتعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له ولا ولد له ، وهو رب السموات والأرض

والعرش فلا يكون جسما ؛ إذ لو كان جسما لم يقدر على خلقها ، وإذا لم يكن جسما لا يكون له ولد ؛ لأن التولد من صفة الأجسام ، وبعد أن أمره الله أن يعلن هذا الإعلان ، وينزه الله هذا التنزيه بعد أن أقام عليهم الحجة فى السورة ، أمر الله رسوله ﷺ ، والأمر الثانى ، فدعهم يخوضوا فى باطلهم وجهلهم وضلالهم ، ويلعبوا فى دنياهم حتى يلاقوا يوم القيامة ، فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم فى ذلك اليوم ، وهذا دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب .

ويعود السياق للتعريف بالله عز وجل ، ويعالج أصل قضية العقيدة الفاسدة التى تنبع عنها المواقف السيئة ، فيخبر تعالى أنه وحده المألوه المعبود فى السموات والأرض فأهل السموات كلهم ، والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه ويعظمونه ويخضعون لجلاله ، ويفتقرون لكماله ، فهو تعالى المألوه المعبود الذى يأله الخلائق كلهم ، طائعين مختارين وكارهين ، وهو سبحانه فوق عرشه بائن من خلقه ، متوحد ، ومتمجد بجلاله ، وهو الذى أحكم ما خلقه ، وأتقن ما شرعه ، فما خلق شيئا إلا لحكمة ، ولا شرع شيئا إلا لحكمة ، وحكمه القدرى والشرعى والجزائى مشتمل على الحكمة ، وهو العليم بكل شىء ، يعلم السر وأخفى . ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فهو خالقها ومالكها والمتصرف فيها بلا مدافعة ، وهو الذى يعلم متى تجىء الساعة ، وإليه ترجعون فى الآخرة ، ولا يملك شركاؤهم وآلهتهم الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ، فلا يعطى الشفاعة إلا من شهد بكلمة التوحيد وهم يعلمون أن الله ربهم حقا ويعتقدون ذلك،ولئن سألت المشركين من خلقهم ليقولن الله لا الأصنام ولا الملائكة، ومع هذا يعبدون معه غيره فكيف يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟!

وقال الرسول ﷺ لله شاكيا ، يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون لما شاهد من عنادهم وتصلبهم شكاهم إلى ربه تعالى فأمره أن يعرض عن دعوتهم يائسا من إيمانهم وودعهم وتاركهم ، وقل لهم سلام ولا تجبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم قولا وفعلا فسوف يعلمون عاقبة هذا الإصرار ، وهذا تهديد من الله لهم وأحل بهم بأسه وشرع الجهاد والجلاء ، وفيه تهديد آخر بما سيرونه كذلك فى اليوم الآخر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كل من أعرض عن الله تعالى جزاؤه الهزيمة والخذلان .

٢ ـ الإيمان بوجود الله ووحدانيته فطرة فى النفوس البشرية المستقيمة ، لا ينحرف عنه إلا الظالمون .

٣ ـ ضرورة إعمال الفكر والنظر فى ملكوت السموات والأرض .